

اعترافا مسجيين

للكاتب الفرنسي فرانسوا كوبيه
بفلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

يستطيع أن يدفن ماضيه
في أرجاء باريس الواسعة
التي يضيع فيها كل شيء
ولا سيما إذا كان مثلي شاباً
متوثباً طموحاً على الهمة
موفوراً النشاط، وكان حسن
الهيئة، ذاميل إلى التجارة
ولقد عزم رئيسي قبل محفتي

أن يجعل مني شريكاً له . وكانت تحدثنى نفسي بأن
شاباً مثلي له تلك المواهب يستطيع أن ينال منزلة
في الناس . فاستشعر الشجاعة ، وأحس بالرغبة
في مجادة الحياة ، واستسهل الصعب ، وحمل المكافئ
والمشاق بصبر وثبات . كسبر (حصان المجلة ..)
لأحصل قوتي وقوت مرجريت ... ولكن مالي
ولهذا؟ ولماذا أفكر فيه؟ لأدع الأمور تجري في أعنيها
فلكل شيء أوان ، وخير لي ألا أفكر في غد . فإن
غداً لي وأنا مطمئن إلى هنائه وطيبه ، وما أجمل
الساعة التي أغادر فيها السجن ، فأقف على الباب
ألتفت فيقع بصرى على وجه مرجريت الجميل ،
متوارياً في ظل العربة يتراءى من خلال النقاب
شاحباً من فرط التهييج والاضطراب . فأدفع
للسائق مائة قرش وألقي إليه بعنواني ، وأمره أن
يُغذ السير إغذاً ، وأقفز إلى العربة فأخذ مكاني
فيها ، وتهوى الفتاة المسكينه بجسمها النض على
صدرى باكية منتحبة ، وما أعذبها قبلة أطعمها على
جبينها المشرق !

سنعود إلى عشنا في غرفتنا العليا بشارع
« مدام » تلك الغرفة التي تُرى منها حديقة

لم يبق بيني وبين الحرية إلا أن تشرق على شمس
الغد فتكون خاتمة هذه الأشهر الستة التي حكم عليّ
بأن أقضيها حبساً في هذا السجن جزاء اختلاسي
ألتي فرنك من صندوق رئيسي . فقضيتها فيه أذوق
العذاب الأليم ، تكفيراً عن ذنبي الذي أذنبت ...
ولن تحين الساعة الثامنة من يوم غد حتى
يدخل عليّ الحارس الموكل بي حاملاً إلى ثيابي التي
أخذت مني يوم أدخلت السجن ، وأبدلت بها هذا
الثوب الكالح البغيض ... لقد كانت جديدة نظيفة
وسأعود إذا لبستها إلى ذلك المظهر الأنيق فلا يفرق
الناظر بيني وبين غيري من شباب البلد .. وسأسرع
إلى كاتب السجن فأسأله محو اسمي من سجله ، ثم
أعدو إلى مرجريت فأراها في عربتها تنتظرني على
باب السجن كما وعدتني ... فيا فرحتاه .. سأسترجع
حريتي كاملة غير منقوصة !

أجل . سأكون حراً ، وسأعود سعيداً . لأن
مرجريت التي من أجلها أجزمت جريمتي وسرقت ،
لا تزال تحبني ، وقد كتبت إليّ بالأمس تحلف على
ذلك . وإذن فسأرجع كما كنا زوجين وفيين سعيدين
ولن نذكر أيام المحنة ولا نعود إليها . لأن المرء

- خلافاً للقانون - شمعاً أسطر على نورها هاته الكلمات ، سيدخل على غداً ليخرجني إلى النور والحياة ، فيذهل عند ما يراني معلقاً بإحدى حلقات النافذة بارداً متشنجاً ، كالخ الوجه مندلع اللسان ، وسيفرّ فزعاً ... لكل شيء حينه ، فلا تنظر حتى منتصف الليل

لا أفكر ولا أؤمن في التفكير ، ولا أحاول أن أتبين الشاعر التي تهيجني :

لزام على أن أعترف بأدى بدء أنني لا أحس أياً ندم على عمل السوء الذي قمت به . لقد أقدمتُ على خيانة دينثة سافلة ، إذ سرقت رجلاً أحسن معاملتي ، ووثق بي وكافأني بنيل وشهامة واهم بمستقبلي ، وبلغ من احترامه لي أنه عزم على أن يجعل مني شريكاً له في أعماله ، ولكنني وباً للأسف لم أكن أهلاً لتلك الثقة ، ولم أثبت بعد ذلك ندى ، أفبرهن عليه الآن ؟ أما أني لو أحسست مرة أخرى بيد مرجريت ترنجف في يدي حيال دكان (الجوهرى) ولو رأيت مقلتيها الفياضتين بالآمال وهي تنو إلى سوار دقيق برّاق مزين بالماس والذهب ، لطوّعت لي نفسي سرقة مئة قرش لأبتاع لها السوار . أسافل أنا أم معتوه ؟ لا أدري ولكني أحدهما من غير شك . آه من هذه المرأة ... ترى كيف قدر لي أن أقع في شرك غرامها سريعاً ومن النظرة الأولى ؟

لا أزال أذكر ذلك كأنه حدث الآن . طلب إلى اثنان من أصدقائي أن أرافقهما إلى المرقص العام الذي يجاور « مونمارتر » فرفضت طلبهما ، إذ أني كنت لقساً وكنت عازماً على النوم مبكراً ، ولكنني اضطررت أمام إصرارهما أن أعدل عن رفضي وتبتهما

« اللكسمبورغ » بكامها . ألا ما أجل أيامنا هذه أيام سبتمبر الأضحية ، ذات السماء الصافية والشمس المشرقة . لقد ارتدت الأشجار دون رب حلالها الخضر الزاهية ، وتفتحت أزاهيرها الفاتنة . يا لجمال الطبيعة ! سنجلس بالقرب من النافذة ، وسنرسم هذا المنظر الساحر ، وستغمر الشمس غرفتنا بأشعتها الذهبية العذبة مداعبة الستائر البيضاء ، نافذة في الألوان البلورية تاركة فيها لآلاء وبريقاً .

ما أهنأ طعاماً نتناوله فرحين مسرورين ، نأبي أبصارنا أن تكف عن تبادل النظرات في سكون وصمت ، وفي حنو ودلال . ستأخذ مرجريت مكانها إلى جانبي بعد تناول القهوة على عادتها فيما مضى واضعة ذراعها البضتين على منكبي ، ملقية بذقنها الجميلة فوقهما وهي تنعم النظر في وجهي

سوف ألتشى من عبيرها الممطر ، وشعورها الشقراء ، تدغدغ شفتي ، ثم أغلق مصراع النافذة مسرعاً وأسدل الستائر وأوقد الشموع ، وأزرع ثيابي وأنتظرها مرتعداً مرتجفاً مرتفعاً مخدق . ولا نسل عن فؤادي الخافق والغبطة التي تملك على مشاعري حين أبصر عبقها العاجى ومنكبيها اللذين يبرزان من خلال قميصها الحريري وابتسامتها الساحرة المغرية يا لله ! سأحظى غداً بكل ذلك ، بعد هاته الأشهر الستة التي قضيتها في العزلة المضيئة والوحدة القاتلة . سأحظى غداً بكل ذلك . يا لله ما أعذب الحرية وما أحلى السعادة ، وما أهنأ الحب ! ...

ولكن ... إن كل ذلك لن يكون ... سأنتحر الآن بعد أن أنطق هذه الوريقات بما يوضح حاجتي الملحة إلى الموت . أوه ! هذا الحارس الذي باعني

صاف ، وكان في القُبلة الأولى التي سمحت لي بها
عند صعودنا إلى العربة وانصرافنا من الرقص كثير
من العطف والرحمة والحنان

لله ما أطرَبها وأبهجها ليلة قضيتها إلى جانبها !
لا أزال أحس حتى هذه اللحظة بحرارة دموعها
النهمرة على منكبى التي كانت تذرفها وهي تقص على
تاريخ طفولتها متشردة على أرصفة باريس ، وتاريخ
شبابها البائس وسقوطها المؤلم في حمة الرذيلة .
لقد دفعتني حالتها المحزنة تلك إلى أن أسارع
لإنقاذها ، وغدت بعد تلك الليلة تعيش معى بشرف
واستقامة

لقد كان عملي ذاك مُحققاً بل جنوناً ، إذ لم يكن
لدى من المال إلا مرتبى الذى أتناوله من صندوق
« سان جرمان الصغير » فلو كانت مخرجت
تعرف معنى التوفير والاقتصاد شأن كل الخادِمات
لاستطعن أن تعيش عيشة راضية ، ولكنها لم تكن
كذلك وأأسفاه . كانت بطبعها واهنة الشعور ،
نشيطة الجسم ، ولم يكن سقوطها الأخلاقى ناجماً
عن ميل طبيعى فيها ، بل كان الدافع إليه ضعفها
روحاً وجسداً . وما بالك بفتاة طائشة كسول
متخاذلة لا تهض من سريرها قبل الظهر ، تقضى
أكثر أوقاتها في مطالعة الروايات والقصص ، تصبر
على تناول (السَّلطة) أياماً ثمانية علماً تقتصد
من ذلك بعض المال الذى تستطيع أن تشتري به
لنفسها زوجاً من الجوارب الحريرية

غمرت دارى فوضى شاملة : عند ما كنت أعود
مساء من عملى ، كنت أرى مخرجت منهكة في
تزينها الصباحى تجمل وجهها دون أن تفكر في طعام
أو شراب ، فأضطر إلى أن أكلف الخادم بشراء

عزفت الأركسترا رقصة البولكا ، وكانت
الأنغام شمعية يصدرها ناي مطرب ، وكانت تقفز
في ذلك الفضاء الرُحْب بضعة أزواج من رجال
ونساء ، وكان الجمع الحاشد يدور بلا انقطاع بفتور
وكسل تحت أوراق الأشجار المضاءة . ولم يك
يستقر بنا المقام حتى رأينا امرأتين تدنوان منا
وتخفان لاستقبالنا . أما الكبرى فسمراء محففة^(١)
الوجه — يبدو أنها خادمة في أحد المطاعم الليلية —
يمررها أحد صاحبي وتعرفه ، راحت تطلب منا
بكثير من الفحة أن نقدّم لها من شراب تتناوله .
وأما الصغرى فشقراء ، وقد كان موضعى بجانبها
حول النضد ، وكانت معتزة بطلعتها البهية ووجهها
المشرق الجميل وقوامها الرشيق . وكان يبدو عليها
قليل من الحجل . ولاحظت بسهولة أنها لم تتعلم
الرقص إلا منذ زمن قريب . لم يكن عليها شيء من
الجواهر وكل لباسها ثوب بسيط متواضع أسود
اللون ، ثوب فتاة مهذبة . أما قبعتها فقد كانت
مصنوعة من اللباد تعلوها ريشة وردية ، وكانت
هيئة الفتاة تغرى أول متطلع إليها أن يقول لها
برغبة وشوق : « أنتفضل الآنسة بقبول تناول
المشاء معى ؟ » ولقد كانت قبعتها هذه كلوحة
تسير أو علم يرفرف

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث . كان صوت
الفتاة عذبا كعينيها ، ولم تكن تعرف معنى للصلف
والفحة ، ولقد حياها أحد صاحبي بحية فظة فلم يك
جوابها إلا ابتسامة حائرة يتجاذبها اللطف والنفور ..
لقد كان مرآها يستدعى الشفقة والرحمة حقاً ،
وقد أيقظ جمالها خيالى فشبهتها — رغم أنى لم أكن
شاعراً — بانمكاس نور كوكب درى في غدير نق

من مال وعقار بل إنى استندت فوق ذلك أيضاً ...
كانت لا تعرف النظام ، ولا تدري ما هى العناية .
لقد بذلت كل ما بوسى لأرضيها وأسمدها ، أتراها
رضيت ؟ كنت أخشى دائماً أن تملنى وأن يحملها
الضجر على هجرى

لقد اضطرت إلى استدانة أموال وافرة من جلة
أصحابى وأصدقائى لكى أرسلها إلى عملاى الذين
راحوا يشكون من تأخرى وإهمالى حقوقهم ...
وانتابتنى لذلك أشجان بالغة لم أفص بشئ منها
إلى صر جريت

ترى أفادنى ذلك كله ؟ لقد قالت لى مرة بصوتها
العذب الهادى - وأنا أعرف تماماً ماذا تعنى - :
« ماذا تود أن أعمل ؟ خير لنا أن نفترق لغير لقاء »
فمقدت النية فى نفسى آتتد ألا أبالى بأية نكبة تحمل
بى وأن أنظاهم بأنى لا أبالى أقوالها ، وأن أسى
لاستبقائها بكل وسيلة ممكنة ، وقد بدا لى المستقبل
مرعباً مخيفاً

رأيت الرجال البائسين يشغلون أنفسهم ببعض
الملاهى ، وبدأ لى هذا وانحأ فى موظفى « سان جرمان
الصغير » الذين كانوا يفيضون فى الحديث أماًى عن
مكاسبهم وخساراتهم فى سباق الخيل الذى كانوا
يشتركون فيه بحماس . وفى يوم من تلك الأيام التى
كانت سوق المراهنات فيها رائجة وراجة ، أعلن
رئيس معامل الحرير بلهجة الواثق أن لديه معلومات
هامّة مستقاة من (جوكت) كان معروفاً بين زملائه
سماسرة السباق وسواس الجياد بلقب « البوق الجيد »
كان يدعى هذا البوق أن « جران دوسيل » - وهو
جواد غير مشهور - سينال جائزة السبق الأولى
وأن الذين يراهنون عليه سيربحون عشرة أمثال المال
(٣)

شئ من اللحم . وما حاولت مرة أن أوقظ صاحبتى
وأعنفها على إهمالها ، إلا وكانت تجيبنى غير غاضبة
بقولها : أما أعلم يقيناً أننى لست تلك المرأة التى
تليق بك ، ولكن ماذا تود أن أعمل ؟ أهجرنى إن شئت
ولن يكون لى حق الشكوى

لم أكن أدري بم أجيب ، ولقد كدت أعتقد
أنها لا تهتم بى ، وأننى لم أستطع أن أحملها على حبى
أأهجرها ؟ كنت أفكر فى ذلك بادية الأمر ،
ولكنى عند تصور عواقب هجرانها كنت أرتعد من
الهول : ستمود عقب هجرى إليها ، وفى مساء اليوم
نفسه ، إلى الرقص الرهيب الذى انتشلتها منه ،
وسيمر بها أحد العابرين فتروق فى عينه فيقودها
إلى داره بعد أن يدس فى يدها قطعة أو قطعتين من
ذوات العشرين فرنكا ... أواه ! إن رأسى لم يكن
باستطاعته أن ينوء بتصورات كهذه ... أهجرها ؟
كانت تحدثنى نفسى قائلة : إنك ستستيقظ صباحاً
فلا تحس دفء جسمها بقربك ، فلا أكاد أسمع هذا
منها حتى يغمى على من الخوف والحزن .

ولقد أصبحت حاجتى إلى تلك المرأة - بعد
أسابيع قليلة - قوية شديدة ، وكثر ميلى إليها فلم
أعد أستطيع الانفكاك عنها بحال . كنت أحبها ...
وأحبها ... لا بل إنى كنت مجنوناً بحبها

ألم تكن تبين قبل أن أضممها إلى فى غرفة
قدرة فى فندق صغير ؟ ألم يكن كل ما تملكه ثوبها
البسيط الذى كانت ترتديه وتلك القبعة ذات الريشة
الوردية التى انفردت بها فى المراقص العامة ؟ أما والله
لقد بذلت جهد طاقى لأقدم إليها ثياباً تضفى عليها
الحشمة والوقار ولأجهزها بكل ما تحتاجه وتطلبه ،
ويعلم الله أننى أنفقت فى هذه السبيل كل ما أملك

— ماذا؟ ماذا؟ إن ثمنه لا يقل عن ألف فرنك
فلا تكاد تسمع هذا الجواب حتى تبتمد عن
الواجهة ببطء، وفي عينيها نظرة أسف عميقة وتقول :
— هيا بنا ... ما أجل هذه الألاعيب ، إنها
من نصيب سوانا

وفي تلك اللحظة كانت تعاود ذهني تفاصيل
مساومة الاصطبل التي قصها عليّ صديقي وكنت
أثق بنجاح جران دوسيل ثقة مطلقة ، وكنت أشعر
في أعماق فؤادي بدافع شيطاني قوى يغريني بأخذ
ألفي فرنك من الصندوق الذي كنت موكلًا به أشتري
منهما السوار لرجريت ، وأتم مغامرتي بالمال الباقي ،
وكنت أبرر هذه السرقة ، بأن أقول في نفسي :
إن هي إلا أيام قلائل أستطيع بعدها أن أرد بكل أمانة
المبلغ الذي مرقته إذا ما رجحت في مغامرتي ، ورأيتني
إذ ذاك متخلصاً من جميع همومي ومتاعبي ، مالئاً
جيوبى بالذهب الوهاج ، أتناول طعام الغداء الشهي
مع صاحبتى جالساً بجانبها في ظل حمام بالمرح ،
عابثاً بين حين وآخر بشعرها المتدلى على عنقها
تخيلت ذلك كله في لحظة واحدة ، قبل أن تحوّل
مرجريت نظراتها عن الواجهة الساطعة .

وكنت أسحبها ضاغطاً على يدها ، مسرع
الخطى ، يخفق فؤادي خفقاناً شديداً ، ثم أشعر
بجأء برأسي بضرب ضربات ألوية موجعة ، ونفسي
تحدثني قائلة : « أما إذا لم تريح ..! »

كنت أرنو إلى رفيقتي من جانب عيني ، ولحسن
حظي كنت أراها ملتفتة برأسها إلى الجهة الأخرى ،
جهة المخازن لم ترني ، وقد رأيت في مرآة أحد المخازن
وجه مجنون يشبه وجهي ، ولكنني كنت أملك زمام
نفسي باذلاً جهوداً عظيمة .

الذي يدفعونه . ولقد رأيت أحد تجار الثياب الصوفية
باع أشواط الجواد « ست دويك » مع أنه كان
الجواد السابق في المضمار ، ورأيت آخر لا يريد
أن يرجع عن رأيه في الجواد « جران دوسيل »
وراح يدبر بإشارات مساومة دنيئة في الاصطبل
الذي اجتمعت فيه الخيول الشهيرة المروضة وكان
يريد أن يجعل النصر حليف هذا الجواد
فتملكتني مشاعر رهيبية أمام هذه المشاهد المفرية
واضطرب جسمي وحدثت نفسي قائلاً :

— لو عادت لي الآن قطعة الخمسة فرنك التي
كانت في خزانتي يوم عرفت مرجريت ، لخاطرت بها
في هذا السباق بلا تردد ولا إحجام . عشرة أمثال
هذا المبلغ خمسة آلاف فرنك ! يا للسعادة ! سأفي
كل ديوني وسأقضي حياة رغدة هنيئة . ستكون لي
مرجريت بلا منازع أشهراً طويلة ...

ولكن ... لم أكن أملك ساعتئذ إلا قطعتين
من ذوات المشرين فرنكاً ، واضطرت إلى طرد
هذا الحلم الذي لن يتحقق إلا في عالم الخيال وهزرت
كتفي ساخراً

كنت قد وعدت مرجريت ، رغم فقرى ،
أن أذهب بها في ذلك المساء إلى « فولي بيرجير »
حيث يرى كثير من الأقزام الغرباء الذين يبعثون في
النفس الخوف والرغبة ، وذهبتنا سائرين على أقدامنا ،
يدي في يدها ، كي تقتصد أجرة عربية ومررتنا تحت
شرفات « ياليه رويال » وكانت مرجريت تقف صراراً
— شأن كل امرأة — حيال واجهات الصاغة وتشير
بيدها إلى سوار دقيق مزين باللماس قائلة :

— خبرني ، أي ثمن تقدر لهذا السوار الصغير ؟
مكث أجيبها قائلاً .

لم أكن قد أحسست من قبل هذا الشعور
الرهيب ، ولم يبد من مرجريت في تلك الأشهر
الخمسة التي عشناها معاً ما يوقظه في نفسي . لقد
كانت مثلوجة الفؤاد ، ملازمة للدار طول النهار
— ولدى أدلة على ما أقول — وفي المساء عند ما كنا
نخرج معاً لم أكن أرى في عينيها تلك النظرة التي
تلقى بها كل امرأة — حتى أشرف النساء — ولو
كانت برفقة زوجها ، إلى أول مار ينظر إليها نظرة
إعجاب ... إن مرجريت لم تكن خليمة قط .

وقع ما تنبأت به ، إذ أن مرجريت قد حز في أعماق
نفسها لإجرائ ورأت فيه دليلاً على حبي لها ، وأشهد
أننى رأيتها في جلسة المحاكمة تبكي بدموع صادقة
مخلصة ملقبة تبهمة سقوطى على عاتقها ، ومذموم لها
بزيارتى في السجن — وكانت تدعى أنها أختى —
بدا لى وجهها من خلال قضبان السجن شاحباً
شحوب الموت دالاً على أنها تعاني حزناً عميقاً .
لقد كانت تحببى ، وكنت واثقاً من ذلك كل الوثوق
لا أزال أذكر المقابلة الأولى : كنا نتبادل
النظرات من خلال القضبان الحديدية في حزن وشجن
وأذكر أنى سألتها قائلاً :

— وأخيراً ... أراك أصبحت تشعرين نحوى
بقليل من الحب ، أليس كذلك ؟
— لقد زاد حبي لك ، وأحسبك تدرك ذلك
بسهولة

— ولكن فؤادك كان قاسياً قبل الآن
— إن عملك الأخير قد شجاني وخالط الحب
من جرائه سويداء قابى ، ولم أكن أعتقد قبل ذلك
أنك تكن لى مثل هذا الحب الجامح القوى ... إختبر
حبي لك إن شئت

وبعد ، فإذا تراه يحدث ؟ ماذا يحدث إذا أنا
لم أرى ؟ سأجلس بلا ريب محنى الظهر خافض الرأس
على كرسي الاتهام وسأقاسى عذاب السجن وبلاءه
إلى جانب المجرمين . لا يحدث شئ في هذه الدنيا
دون مناصرة ومخاطرة ، وإذا كان حظى الخيبة
والفشل بعد ذلك فسألقى على هذه المرأة التي جعلت
منى خادماً لها ، والتي لم أستطع أن أوقظ فؤادها
البارد المتجمد ، سألقى عليها درساً يشعرها بحبي
العظيم ، عساها تشعر أخيراً فى أعماق فؤادها ببعض
الحب لى فتتألم بدورها — مهما كان قاسياً — عند ما
تعلم أننى ارتكبت جريمة السرقة من أجلها .

ليس بوسمى الآن أن أصور العاصفة النفسية
الخلقية الجارحة التى سودت وشوهت صفحة كرامتى .
وليس بوسمى الآن أن أسرد حديث السرقة الشائنة
التي ارتكبتها ، وآلاى النفسية المظنية أمام قائمة
المراهنات عند ما كانت الخيول تعدو وهى تضرب
ضرباً مؤلماً مبرحاً ، وصهيل الجواد « ست دوبيك »
الذى كاد يسبق (جران دوسيل) فى اللحظة الأخيرة
لولا أن مدّ الأخير عنقه فأحرز قصب السبق بهذه
الحركة الأخيرة !

لقد اكتشفت جريمتى ، وأوقفت ، وحوكت
وأدنت وكان مصيرى هذا السجن الذى تحملت فيه
ألوان العذاب والبلاء والذل والهوان ، والذى لن
أخرج منه إلا ميتاً .

أواه ! لشد ما شكوت من الآلام الرهيبة الهائلة ،
آلام لم تحملها إلى آلات التعذيب المفرقة ، ولم
يسببها حرمانى الحرية ، ولا وجودى إلى جانب
المشردين والمجرمين وقطاعى الطرق ؛ كلا ليست من
أجل ذلك ، ولكنها آلام أثارته فى فؤادى نيران
الغيرة الرهيبة القاتلة .

— ليس لدى إلا شيء واحد يدفعني إلى الاعتقاد

بحبك لي واقتناعي به

— قل لي ما هو ؟

— هو أن تنتظري خلاصى وتبقى مخلصه لي

— أعذك بهذا ، وأقسم عليه إن شئت

— حسن ، وكيف تودين أن تقضى هذه المدة ؟

— سأعمل !

— تعملين ؟ أنت يا صديقتي تعملين ؟

— ولم لا ؟ لقد تعلمت الخياطة وكيف أبرع بها

وعادت إلى بعد ثمانية أيام وخلصت أملى قفازيها

وأرنتي أصابعها التي تقبها الإبر ، وخبرتنى أنها تعمل

في أحد المخازن المختصة ببيع ما تحتاجه المرأة ، وبدأت

تربح فرنكين كل يوم ، وغدت بعد أيام قليلة أكثر

حذقا وغدا أجراها ثلاثة فرنكات وابتسمت لي قائلة :

— يمكن أن يعيش الانسان بهذا المال القليل

عيش الكفاف ، وسأصبر عليه إذ لا يشغلنى ولا

يهمنى في هذه الحياة ، إلا أمر واحد هو أن تكون

يا عزيزى هاتئا ومسرورا

ورأيتها تلفظ كلمة (عزيزى) باضطراب محاولة

أن تخلع عليها كل مالمديها من عاطفة ، بعد أن كانت

تلفظها ببرودة وبكثير من الابتذال ، وترقرق عينها

بعد ذلك بالدموع

لم أشكو إذن من حياة السجن وثيابه البالية

وطعامه الردى ، وزملائى الذين هم سفلة الناس وليالى

المسيدة المضنية ؟ لم أشكو من ذلك كله مادامت

مرجريت تحببني ، وما دامت تحصل قوتها بنفسها

لتبقى وفيه لي منتظرة خلاصى ؟ هل كنت أتصور

هذا من قبل ؟ آه ما أتمسنى وأشقاني ! إننى ارتكبت

جريمة السرقة من أجل امرأة ، وسأكفر عن

خطيئتي هذه ، وسيكون عزائى الأوحى أن أرتعى

بين ذراعى هذه المرأة التي انقلبت خلقا آخر ، والتي

بعت امرأة جديدة بفضل الحب وبفضل العمل

والتي ستكون أكبر رادع لي عن السقوط الخلقى

كرة أخرى . لقد أحسست بالشجاعة تغمر فؤادى

وسأحتمل هنا كل العذاب الذى أستحقه دون أن

أبدى تذمرا أو شكوى . ولقد كنت في أشد

الساعات هولاء ، هنا في السجن لا أفكر إلا في مرجريت

وكان الأمل الواضح الذى يبدو لي بين طيات المستقبل

الباسم ، ينمشنى ويميد لي نشاطى وعزى ، كأننى

تناولت شرابا منعشا ، وكان زملائي الخفيفون

يسألوننى أحيانا قائلين :

— مالفا نراك سعيدا ؟ وفيم ابتسامك الدائم ؟

فكنت لا أحيى جوابا

أنا السجن البائس ، أنا الذى كان الحراس

يزأرون في وجهه قائلين : من هنا — كما يقال

للكلاب — أنا السجن البائس عشت ساعات طويلة

كانت تغمر السعادة فيها جوانب نفسى وكان يفيض

قلبي هناءة وسرورا . ولقد دامت فترة سرورى

شهرين متتابعين كانت مرجريت في أثناءهما تعاود

زيارتى بانتظام ودقة كل أسبوع ، وكنت أتطلع

في كل زيارة — وقلبي مغمم بالشفقة — إلى مقلتيها

اللتين أضناها السهر ، وإلى وجنتيها اللتين أشجبهما

البؤس ، وإلى أصابعها الداوية التي براها العمل ،

وإلى ثوبها الذى كان يفقد لونه على مر الأيام

ثم جاءتنى على حين غرة ، مرتدية ثوبا جديدا

فكان ذلك مثيرا لارتياي ، ولحظت وجهى تتماور

الشكوك فألقت إلى نظرة حادة وقالت باسمه :

— أراك تنظر إلى هذا الثوب الجديد ،

وراحت ترسل الأكاذيب تباعاً دون خوف أو خجل .
ونارت في نفسى عاصفة قوية من الألم والغضب ،
كادت تنفجر لولا أننى غالبتها ووجدت القوة على
إخمادها وبقيت هادئاً حتى النهاية ، ولم أكن أجيب
إلا بوضع كلمات نافهة على ثرثرتها التى لا تنتهى ،
وأعتقد أنها عللت صمتى بحالتى المؤسفة التمسة
وتركتنى مرحة واثقة أنها استطاعت خداعى

وظلت مرجريت تخدعنى . وبينما كنت أتحمل
من أجلها عقاب السارقين كانت قد اتخذت - أواه
ماذا أقول - اتخذت حبيباً ربما استسلمت إليه فى الليل
لقاء هبات نافهة . لئن رأيته لتردى الآن ثوباً جديداً
فأنا واثق من أنى سأرى فى يديها ، فى المرة القادمة ،
قفازاً جديداً ، وعلى رأسها قبعة جديدة ، وفى جمعيتها
أكاذيب جديدة تهيننى لفاجأت جديدة . وبأليتها
جاءتنى بثيابها الرثة كاتمة عنى حديث ثوبها الجديد ،
ولكن ما إخالها استطاعت أن تظهر فى الشارع بتلك
الثياب ، وفضلت أن تخترع كل هذه الأكاذيب
الشائنة ، وما إخالها إلا هازة كتفها قائلة فى نفسها :
« وماذا يهمنى بالله إذا كان لا يصدقنى ؟ » تبأ لها
من فتاة خائنة فاجرة ! أمن أجلها ارتكبت جريمة
السرقة ؟ أمن أجلها دنست شرفى وشوهت سمعتى ؟
ألا تمسألى

ولكن . . . كنت أسائل نفسى قائلاً : لماذا
كانت تزورنى ما دامت تخوننى وتبغضنى ؟ ولكنى
كنت أحس الجواب فى نفسى : إن الشفقة على
كانت تدفعها لزيارتى ، كما يشفق الإنسان على خادم
المستشفى فيحمل إليه قليلاً من البرتقال . أواه !
يا للعار ! أكانت تشفق على إذن ؟
قضيت ثمانية أيام رهيبة وأنا أدير هذه الخواطر

لقد وهبتني صديقتى كلوتيد التى كانت ممي فى المرة
الأولى التى لقيتك فيها ، أغرم بها شاب حتى درجة
الجنون وراح يعمل من أجل إرضائها ما لا يستطيعه
إلا المجانين . ولما رأت ثيابي الزرية الرثة أهدت إلى هذا
الثوب الذى لم تلبسه إلا قليلاً ، ولم أره بحاجة
إلى الإصلاح فهو جديد كما ترى

سمعت هذا الكلام فلم أستطع أن أصدقته ،
ذلك لأن مرجريت لم تخدعنى قط منذ عرفتنى عن
هذه المرأة التى دعته كلوتيد وادعت أنها صديقتها ،
وقبل أن أعرف مرجريت كانت المرأتان تقطنان
أحد الفنادق متجاورتين وكانتا تذهبان معاً إلى
المراقص العامة ... هذا هو كل شيء ، وكنت
أذكر جيداً أن كلوتيد هذه فتاة قد ذوى شبابها
وزال روائها وانطفأ جمالها وسقطت فى مهاوى
البؤس والفاقة ، وكان أقصى عمل تستطيع أن تقوم
به هو أن تغوى أحد الشاربين الثملين بفضل الأصبغة
التي تستر وجهها ، ولن تستطيع امرأة مثلها أن تجد
حبيباً ذا غنى لتتكرم على صديقها بمثل هذا
الثوب ... وزادنى اعتقاداً بكذب مرجريت ارتجاف
نظراتها واضطرابها ، واهتزاز جفونها ، ولم تكن
عينها فى الحقيقة إلا عيني كاذبة !

وكدت أصارحها بكل ما فكرت فيه وما حدثتنى
نفسى به ، وكدت أميل عليها بالعتاب ، لولا أننى
خشيت أن تهجرنى إلى الأبد ، فسكت على مضض
وأخفيت ما فى نفسى ، وراحت هى تتابع حديثها
الماطى قائلة لى : إن أجرها قد بلغ ثلاثة فرنكات
ونصفاً ، وأربعة فرنكات أحياناً فى اليوم ، وأن لديها
كثيراً من العمل حتى إنها لا تجد الوقت الكافى
للقيام به ، وإنها بدأت تفتش عن مساعدة لها ،

بينما كنت أنتظر في ذلك اليوم قدوم صاحبتى كنت أحاول إقناع نفسى بأننى أسأت الظن أكثر مما ينبغي وأنه ليس من المستحيل أن تجمع المرأة عن طريق عملها بعض المال الذى تستطيع أن تبتاع به بضعة أثواب وحلى ، ومكّن هذا الخاطر من نفسى ذكرى عادت إلى : لم تتحل مرجريت أثناء زيارتها لى بالحلى التى قدمتها إليها وقد أصرت يوم المحاكمة على أن تعيد لى السوار الذى اشتريته لها بالمال المسروق ، وبرغم أنها كانت فتاة فقيرة فقد كانت تبغض الحلى الزيفة أشد البغض ، ولم أعرف أنها تحلت بأية زينة حتى أن أذنيها لم تكونا مثقوبتين . وقد هاجت هذه الذكرى شعورى . ثم ذكرت أننى وإن لم أر خاتماً فى أصبعها ، كنت لا أرى أثر العمل ظاهراً فيها ، ومع ذلك فقد حسنت ظنى - وإن كان من الممكن أن تكون قد قبلت حلياً ولم تبدها لى - وأحسست فى نفسى ميلاً لحسن الوفادة والمعاملة ، وكنت أريد أن أقنع نفسى بأننى ظلمتها بإساءة ظنى بها

قدمت على عاداتها فى الوقت المحدد ، ولم تكذب تقع عينى عليها من خلال القضبان الحديدية حتى تبدد ارتيايى وزالت شكوكى ، ولكنها لم تكذب تقرب منى حتى رأيت - أواه ، يا لسخرية القدر - رأيت فى أذنيها ثقبين غضين ! أصبحت تملك حلياً هذه المرأة التى كانت تبغض الحلى الزائفة ؟ رأيت فى أذنيها جواهر ثمينة بل لآلى وأظن أنها وضعتها لتحلوا فى عيني ولتقدم لى دليلاً على رقتها ولطفها ، غير عالة أنه من اللطف أن تخفيها عني وتعفينى من رؤيتها ! منذ ذلك الحين لم يعد يداخلنى أى ريب فى خيانتها ، وصممت إذ ذاك على الانتحار ، وقد كان

فى رأسى بلا انقطاع ثم تملكى الذعر وقلت : هل تأتى لتزورنى فى يوم الزيارة القادم ؟ وتذكرت فى غمرة اليأس القاتل كم كانت مرجريت عزيزة على حبيبة لى ، وأقسمت أن أخفى عنها غيرتى ولا أبدي لها ارتيايى وألمى وقد وفيت بهذا القسم عادت إلى بقعة ريعية جديدة - كما قدرت - وكنيت بها هيئتها وكان الاطمئنان والسرور يشمان من عينيها وبشرتها غضة . أكانت تمشى هذه المرأة فى بؤس ولا تحصل على قوتها إلا بخياطة رقع طول النهار والليل ؟

ورغم هذا كله ظللتُ شجاعاً - أو ساذجاً على الأصح - إذ كان يخيّل لى أنها تصيب بتظاهرها بالسرور وبإدعائها أنها تستخدم عاملتين مع مائة أ كذوبة من هذا النوع ، وتظاهرت بمشاركتها السرور ، ورجوتها بمطف ورقة أن تخلع قفازيها وأن تستند بيدها إلى الحاجز الذى يفصلنا لأستطيع لىها بشفتى ، فأطاعتنى . ولشد ما كانت دهشتى إذ رأيت يديها غضتين لا أثر فيهما - ولا فى منتهى أصابعها - لثقب إبرة أو ...

ما هذا ؟ إني أسمع ساعة السجن ترن الحادية عشرة والنصف ، وستفنى قطعة الشمع الباقية لى بعد وقت قصير فلا أسرع إذن ولا أختصر . إذ لو كان أمانى متسع من الوقت لسررتنى أن أصف هنا القلق الذى انتابنى وغمرنى بالآلم والذى يمكن بيانه بهاتين الكلمتين الرهيبتين : سجين غيور ! أجل ، يسرنى وإيم الله أن أصف وصفاً دقيقاً الآلام والشجون التى كانت تثيرها مرجريت فى كل زيارة جديدة ، ولا بد لى من وصف إحداها هنا إذ كانت أروع الزيارات وأقساها وأشدّها هولاً :

عند تلاوة هذه الصفحات ، ولكن كل شيء إلى نسيان ، وعند ما يسألك أحد أحيائك الذين تجمعهم بك المصادفة ، عند ما يسألك أن تقص عليه قصة حياتك لمجرد التسلية ، ستكون مزهوة كشيلا تك. ستقفزين من سريرك عارية القدمين لتفتش عن هذه الأوراق في درج خزانة الذي تضعين فيه أوراق اللب ، وعند ما تعودين إلى سريرك ستقرئين اعترافاتي هذه كل زائر ليلى مزهوة نفورة بأن شاباً بائساً تعسا انتحى من أجلك وفي سبيلك

أواه... لقد انتصف الليل، وها هي ذى الساعة تدق اثنتي عشرة ، وها هي ذى ذبالة الشمعة تحترق هيا ... لأقتل غطاء السرير ولأربطه بالنافذة ، ولأحكم عقده على عنقي ... لأتشجع ولأنته من آلامي ، ولأخلص من شقائي

نابهي الطنطاوي

(دمشق)

ظهر عربياً

عبث الأقدار

قصة مصرية تاريخية

تأليف

نجيب محفوظ

يطلب من مكتبة الوفد والمكاتب الكبرى

الأخرى بي أن أصم عليه منذ وقت طويل ، ولكن ما فائدة الكلام ؟ إن الإنسان جبان يخشى الموت . وبعد ، وبرغم كل ما ذكرت ، أعترف بأنني لا أزال أحب هذه المرأة ، وكنت أتمد في الليل على فراشي - إن صح أن أدعوه فراشاً - ساجداً في أحلام عذبة لا أرى فيها إلا مرجريت ... أواه ! لقد تفاوتني كل لون من ألوان الضعف ، ورحت أفكر في استرجاع مرجريت وغدت أسخر من نفسي وأهزأ بنفرتي قائلاً : « إن ضميرك حساس ويقظ أكثر مما يجب أن يكون » ، ولكن التفكير في أنها خدعتني وأنها أصبحت ملك رجل - أو رجال - غيري بينا أنا موقوف في السجن بسببها ، كان يدفعني إلى الغضب ، بل إلى الجنون .

أجل ، إن من الممكن - كما قلت في بدء اعترافاتي هذه - أن أتناول معها طعام الإفطار صباح غد في غرفتنا الصغيرة إلى جانب النافذة التي تطل على الحديقة الكبرى ذات الأشجار الخضراء الواهی . كم يكون ذلك جميلاً رائعاً ... ولكن ... لو حانت مني التفاتة إلى الموقد ، ووقع بصرى على عقب دخينة (الرجل) بين الرماد المحترق ، لو قدر لي أن أرى ذلك لتناولت سكيناً وأخمدتها في قلبها

ولكن لا ، لا أريد أن أغدو قائلاً . يكفيني أنني سارق ، وخير لي أن أموت دون أن أحمل لها حقداً أو موجدة وأقنع نفسي أن ما حدث لم يكن منه مفر ، وأنها كانت مخلصه لي ، وأنها مع هذا ربما كانت تحبني قليلاً في اليوم الذي لم تقو وبالأأسف على الوفاء به

وداعاً يا مرجريت ... إنك لا تزالين شريفة في أعماق نفسك ، وإخالك ستدرفين قليلاً من الدمع